الأسماء المتعلقة بصفات الكمال - العلم

1 ـ السَمِيعُ

معناه

السَمِيعُ (فَعِيلٌ) مبالغةٌ لِـ (فاعِل) فهو السامِعُ، أي الكاشِفُ لِكُلِّ مَوْجُودٍ بِصِفَةِ السَمْعِ، وكشفُ الأشياءِ بالسَمْعِ نَوْعٌ مِنَ العِلْمِ.

والسَّمْعُ صِفَةٌ أزَلِيَّةٌ قائِمةٌ بذاته تعالى، تَتَعَلَّقُ بالموجودات تَعَلُّقَ إحاطَةٍ وانكشاف، لا بالمسموعاتِ فقط، خلافاً للتفتازاني.

فاللَّهُ سُبْحَانَه يَسْمَع كُلَّ شَيْءٍ، ويُشْرِفُ بِسَمْعِه على كل حَرَكَةٍ وسَكَنَةٍ في الوُجُودِ تَنْبَعِثُ مِن مَصدَرِها القَرِيب أو البَعِيدِ، ولَيْسَ هناك قُرْبٌ ولا بُعْدٌ بالنِسْبَةِ إلى اللَّهِ، فيعلمُ كُنْهَهَا ويَسْمَعُ صوتها، حتى إنه يَسْمَعُ دَبِيبَ النَمْلَةِ السَوْداءِ على الصَّخْرَةِ المَلْسَاءِ في الليلةِ الظَلْماء، ويَسْمَعُ خَفَقانَ القُلوبِ في حنايا الخَلْقِ أجمعينَ، ولا يمنعُه سماعُه تعالى جماعَةً عن سماعِهِ جماعَةً آخرين، فما يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عن شَأْنٍ، وما تَغيبُ عنه هَمْسَةٌ وَسْطَ الضجيج، ولا تَشْتَبِهُ عليه لُغَةٌ على اختلاف الألْسِنَةِ.

ولا يَفْتَقِرُ سَمْعُهُ تعالى إلى جارِحَةٍ أو أُذُنٍ أوْ صِماخٍ، ولا يَحتاجُ إلى واسِطَةٍ كالهَواءِ، ولا إلى شَيْءٍ ممّا يحتاجُ إليه الإنسانُ وغيرُه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11].

دليله: من النقل قولُه تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة: 1]، وقولُه تعالى وقد أرسلَ موسى وهارونَ عليهما السلامُ إلى فِرْعَوْنَ: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ﴾ [طه: 46]. وقد ورد اسمُ اللّهِ السميع في (47) موضعاً من القرآنِ الكريم.

ومِنَ السُنَّة حديث أبي هريرة الجامع لأسماء اللّهِ الحسنى التسعة والتسعين، الذي أخرجه الترمذي وابن ماجه في «سننهما»، والبَيْهَقِي في «الدعوات»، وقوله ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري في كتاب التوحيد، الحديث (6952) في الحج للناس، وقد رفَعَ الناسُ أصواتَهم بالتَلْبِيَةِ والتكبير: «**ارْبَعُوا** ـ أي أَشْفِقوا ـ **على أنْفُسِكُم فإنكم لا تَدْعُونَ أَصَمَّ ولا غائباً، تَدْعُونَ سَميعاً بَصيراً**».

ودليله من العقل أن يُقال فيه: لو لم يَتَّصِفُ سبحانه بالسَمْع لَاتَّصَفَ بضدها وهي الصَمَمُ، ولَلَزِمَ النَقْصُ في حقه سُبْحَانه، والنَقْصُ عليه مُحالٌ؛ لأنه مُنافٍ لِكمالِ الأُلُوهِيَّة فَثَبَتَ كَونه سمعياً.

واختلفَ العلماءُ في مدى شمول وتعلّق صفة السمع، فقال الإمامان، محمد بن يوسف السنوسي (ت 895هـ)، وإبراهيم بن محمد الباجوري (ت 1277هـ) في عقيدَتَيْهِما أنها شاملةٌ لجميع الموجودات، أي إن سَمْعَهُ تعالى يتعلّق بما هو قابل للسمع بالنسبة إلينا، وبما هو غير قابل له مِن سائِر المَوْجُودَات. وقال سَعْد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت 793 هـ): إنّ صفةَ السَمْعِ تَتَعَلّقُ بالمسموعات، فلا تتعلق عنده بكل الموجودات.

والذي يجب أن نقفَ عنده هو تفويضُ الأمرِ إلى علم اللّهِ تعالى، والاعتقاد أن الانكشاف بالسمع غير الانكشاف بالعلم، وإلّا لما كان في إسْنَادِ كُلٍّ منهما إليه تعالى على حِدَة، أيّ معنى غير التكرار وهو مُحال، وليس الأمرُ على ما نعهده من أن السَمْعَ يفيد وضوحاً فوق العلم، بل جميعُ صفاته تعالى تامَّةٌ كامِلة، ويسْتَحيل عليه الخفاء والزيادةُ والنَقْصُ، وحَسْبُنا في هٰذه الأُمور التي لا نافِذَةَ للعقل إلى الإثباتِ والإنكار فيها، أن نُثْبِتَ ما أَثْبَتَهُ اللّهُ تعالى لنفسه، وأَنْ نَكِلَ علمَ ما لم يأتِنا خَبَرٌ منه وبيانٌ إلى اللّهِ ﷻ.

أقوال العُلماء

يقولُ حُجَّةُ الإسلام، وفَيْلَسُوفُه الإمامُ المُتَكَلِّمُ النَظَّار، الأصولي الفقيه، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء اللّهِ الحسنى»: (السميعُ هو الذي لا يَعْزُبُ عن إدراكه مَسْمُوعٌ وإنْ خَفِيَ، فيدركُ دَبيبَ النَملَةِ السَوْدَاءِ على الصَخْرَةِ الصَمَّاءِ في اللَّيْلَةِ

الظلْماءِ، يسمع حَمْدَ الحامِدينَ فيجازيهم، ودُعَاءَ الداعينَ فيَسْتَجيبُ لهم، ويسْمَعُ بغير أَصْمِخَةٍ وأُذُن، كما يَفْعَلُ بغير جارِحَةٍ، ويتكلَّمُ بِغَيْرِ لِسان، وسَمْعُه مُنَزَّهٌ عن أن يتطرَّقَ إليه الحَدَثان.

ومهما نَزَّهْتَ السَمْعَ عن تغيير يَعْتَريهِ عندَ حُدوث المَسْموعات، وقَدَّسْتَهُ عن أن يَسْمَعَ بأذن أو آلَةٍ وأَداةٍ، علمتَ أنَّ السَمْعَ في حَقِّهِ، عِبارَةٌ عن صِفَةٍ يَكْشِفُ بها كمال صِفاتِ المَسْمُوعَاتِ، ومَن لَمْ يُدَقِّق نظراً فيه وقع بالضَّرورَةِ في مَحْضِ لتشبيه فخذ مِنكَ حَذَرَك، ودَقِّق فيه نظرك.

للعَبْدِ مِن حيثُ الحِسِّ حَظٌّ في السَمْعِ، لكنه قاصِرٌ، فإنه لا يُدْرِكُ جميعَ لمَسْمُوعَاتِ بل ما قَرُبَ مِنَ الأَصْواتِ، ثُمّ إنّ إدراكه لحاجَتِهِ بأداةٍ مُعَرَّضَةٍ للآفاتِ، فإنْ خَفِيَ الصَوْتُ قَصُرَ عَنِ الإِدْراكِ، وإنْ بَعُدَ لم يُدْرَكْ، وإنْ عَظُمَ لصوتُ ربَّما بَطَلَ السَمْعُ واضْمَحلَّ.

وإنما حَظُّهُ الدينيُّ مِنهُ أَمْرانِ: **(أَحَدُهما)**: أن يَعْلَمَ أنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ فَيحْفَظَ سانَه. **(والثاني)**: أن يَعْلَمَ أنه لم يُخْلَقْ له السَمْعُ، إلاّ لِيَسْمَعَ كلامَ اللَّهِ تعالى ـ ي كتابَه الذي أنزله وهو القرآنُ الكريمُ ـ فَيَسْتَفيدُ به الهِدايَةَ إلى طَريقِ اللَّهِ، فلا سْتَعْمِلُ سَمْعَه إلا فيه). انتهى كلامُ الغزالي.

أقوال المفسرين

قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠﴾ [الأعراف: 200]، أَصْلُ النَزْغ الفَسادُ، إمّا بالغَضَبِ أو غيره، قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ﴾ [الإسراء: 53]، والعِياذُ: الالتِجاءُ والاسْتِنادُ والاسْتِجارَةُ مِنَ الشَّرّ، وأمّا الملاذُ ففي طلب الخَيْر. يقول ابن جرير الطَبَرِيُّ في تفسير هٰذه الآية: وإما يُغْضِبَنَّكَ مِنَ الشيطانِ غَضَبٌ يصُدُّكَ عَن الإعراض عَنِ الجاهِلِ، ويَحْمِلُكَ على مُجازاته ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ﴾، يقولُ: فاسْتَجِرْ باللَّهِ مِن نَزْغ الشيطان ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سَميعٌ لِجَهلِ الجاهِلِ عليك والاستعاذة به من نَزْغه ولِغَيْر ذلك مِن كلام خَلْقِهِ، لا يَخْفَى عليه منه شيءٌ ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يُذهب عَنكَ نَزْغَ الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه، وفي الحديث:

أن رجلين تسابّا بحضرة النبيّ ﷺ، فَغَضِبَ أحَدُهما حتى جَعَلَ أَنْفَهُ يَتمَرَّغُ غضباً فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إني لأَعْلَمُ كَلِمَةً لو قالها لَذَهَبَ عنهُ ما يَجِدُ، أعوذُ باللَّهِ مِن الشيطان الرجيم**»، (أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق من «صحيحه» (٤/ ٢٥٢)، باب صفة إبليس وجنوده، الحديث (٣٢٨٢)، عن سُليمان بن صُرَد ﷺ).

92 ــ البَصِيرُ

معناه

البَصيرُ على وزن (**فَعِيل**) صيغة مبالغة لـ (**فاعِل**) فهو الباصِرُ، أي الكاشفُ لكُلِّ مَوْجُودٍ بصفَةِ البَصَر، وكشْفُ الأشياء بالبَصَر نوْعٌ مِن العِلم. ويُقالُ: البَصيرُ العالِمُ بِخَفيات الأُمور، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: 20]، وقد ورد هذا الاسم في القرآن في (51) موضعاً، كما ورد في الحديث الشريف الجامع لأسماءِ اللَّه الحُسْنَى، والبَصَرُ صِفَةٌ أزلية قائِمةٌ بذاتِه تعالى تتعلق بالموجودات تعلقَ إحاطةٍ وإنكشافٍ لا بالمُبْصَراتِ فقط خلافاً لسعد الدين مسعود ابن عمر التفتازاني (ت 793 هـ).

فاللَّهُ سبحانَه وتعالى يَرى كلَّ شَيْءٍ رُؤيَةً شامِلَةً تَسْتَوْعِبُ كلَّ الكائِناتِ مِن بدْءِ الخلق إلى قِيام الساعَة وما قبل ذلك وما بعدَه. ورؤيَتُه سُبْحانه تَنْظُر في أعماق الظُلُماتِ فَتَسْتَشِفُّ كوامِنَها، فما هو بحاجَةٍ إلى ضِيَاءٍ يُبْصِرُ به الخَفِيَّ، أو مُكَبِّر يُعَظِّمُ به الدَقيقَ، وفي هٰذا قال الشاعر:

يَا مَن يَرَى مَدَّ البَعُوضِ جَناحَها   في ظُلْمَةِ الليلِ البَهيمِ الأَلْيَلِ

وكذلك ما هو بحاجَةٍ إلى حَدَقَةٍ وأَجْفَانٍ أو حاسَّةٍ في رؤيَتِهِ قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11].

وهو سُبحانه قد مَنَح البَشَر نِعْمَةَ البَصَرِ، ولكن ما قيمةُ رُؤْيَتِهم إلى جانب الرؤيَةِ الإلٰهيَّة المُحيطَةِ الشامِلَةِ، سواءٌ فيها المُسْتَخْفِي بالليل والسَارِبُ بالنهار، الخالِي وحْدَهُ، والبارزُ للناس، قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: 61].

أقوال العلماء في تفسيره

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (البَصيرُ هو الذي يُشاهِدُ ويَرَى حتى لا يَعْزُبُ عنه ما تَحْتَ الثَرَى، وإبْصارُهُ أيضاً مُنَزَّهٌ عَنْ أنْ يكونَ بِحَدَقَةٍ وأَجْفَانٍ، ومُقَدَّسٌ عَنْ أنْ يَرْجِعَ إلى انْطِباعِ الصُوَرِ والألوانِ في ذاته كما ينطبع في حَدَقَةِ الإنسان، فإنّ ذلك من التأثُّرِ والتَغيُّرِ المُقْتَضِي للحَدَثان، وإذا نُزِّهَ عن ذلك كان البَصَرُ في حَقِّه عبارَةً عن الصِفَةِ التي يَنكشِفُ بها كمالُ نُعوتِ المُبْصَراتِ، وذلك أوضَحُ وأَجْلَى مما تَفْهَمُه مِن إدراكِ البَصَرِ القاصِرِ على ظواهِرِ المَرئيّات.

حَظُّ العَبْدِ مِن حيثُ الحِسِّ مِن وَصْفِ البَصَرِ ظاهِرٌ، ولكنه ضعيفٌ قاصِرٌ؛ إذ لا يَمْتَدُّ إلى ما بَعُدَ، ولا يَتغَلْغَلُ إلى باطِنِ ما قَرُبَ، بل يتناوَلُ الظواهِرَ، ويَقْصُرُ عن البواطِنِ والسرائِرِ، وإنما حظُّه الديني منه أمْرانِ:

(أحدُهما): أن يعلمَ أنه خُلِقَ له البَصَرُ لِيَنْظُرَ إلى الآياتِ وعجائبِ المَلَكُوتِ والسمٰوات، فلا يكونُ نظرهُ إلا عِبْرَةً. قيلَ لعيسَى ﷺ: هل أَحَدٌ مِنَ الخَلْقِ مِثْلُكَ؟ فقال: مَن كان نَظَرُهُ عِبْرَةً، وصَمْتُهُ فِكْرَةً، وكَلامُهُ ذِكراً فَهُوَ مِثْلِي.

(والثاني): أَنْ يَعْلَمَ أنه بِمَرْأَى مِنَ اللَّهِ تعالى ومَسْمَعٍ، فلا يَسْتَهِينُ بِنَظَرِهِ إليه واطِّلاعِهِ عليه، ومَن أَخفَى عَن غَيْرِ اللَّهِ ما لا يُخْفِيهِ عنِ اللَّهِ تعالى، فقد استهانَ بنظرة الله تعالى، والمراقبة إحدى ثمرات الإيمان بهذه الصفة، فمن قارب مَعْصِيَةً، وهو يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تعالى يَراهُ فما أَجْرَأَهُ وما أَخْسَرَهُ!! وإنْ ظَنَّ أَنَّ اللَّهَ تعالى لا يَراهُ فما أَكْفَرَهُ!). انتهى كلام الغزالي.

أقوال المفسّرين

قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ

﴿ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٢٠﴾ [آل عمران: 18 ـ 20].

شَهِدَ تعالى وكفى به شهيداً وهو أَصْدَقُ الشاهدين وأَعْدَلُهُمْ، وأَصْدَقُ القائلين ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي المُنفَرِدُ بالإلٰهِيَةِ لجميع الخلائِقِ، وأن الجميعَ عبيدُه وخَلْقُه، وفُقراءُ إليه، وهو الغنيُّ عمّا سِواه، ثم قَرَنَ شهادَةَ ملائِكَتِهِ وأولي العلم بِشهادَتِهِ، وهٰذه خصوصِيَّةٌ عَظيمةٌ للعلماء في هٰذا المقام ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾، أي بالعَدْل، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُرَامُ جنابُه عظمةً وكِبْرياءً ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعالِه وشَرْعِهِ وقَدْرِهِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ إخبارٌ منه تعالى بأنه لا دينَ عِنده يَقْبَلُهُ مِنْ أَحَدٍ سِوَى الإسلام، وهو اتّباعُ الرُّسُلِ فيما بعثهم به في كل حِين حتّى خُتِمُوا بمُحَمَّدٍ ﷺ الذي سُدَّ جمِيعُ الطرُقِ إلى اللّهِ، إلّا مِن جِهَة محمَّدٍ ﷺ، فَمَنْ لَقِيَ اللَّهَ بَعْدَ بِعْثَةِ محمد ﷺ بدِينٍ على غَيْرِ شَرِيعَتِهِ فليس بمقبولٍ، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾ [آل عمران: 85].

ثم أخبر تعالى بأن الذين أوتوا الكتابَ الأولَ وهم اليهودُ والنصارَى، إنما اختلفوا بعدما قامَت عليْهِمُ الحُجَّةُ بإرسال الرُّسُلِ إليهم، وإنزالِ الكتبِ عليهم فقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ﴾، أي بَغى بَعْضُهم على بَعْضٍ فاختلفوا في الحق لتحاسُدِهم وتَباغُضِهم وتَدابُرِهم، فحملَ بَعْضُهم بُغْضُ البَعْض الآخَر على مخالفته في جميع أقوالِهِ وأفعالِهِ وإن كانت حقاً، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي مَن جَحَدَ ما أَنْزَلَ اللّهُ في كتابه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي فإنَّ اللَّهَ سَيُجَازِيه على ذلك ويُحاسِبُه على ذلكَ ويحاسِبُه على تكذيبِهِ ويعاقِبُه على مخالفته كتابَه.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾، أي جادَلوكَ في التوحيد ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ﴾، أي فقل: أَخْلَصْتُ عِبادَتِي للّهِ وحده لا شريكَ له، ولا نِدَّ ولا وَلَدَ ولا صاحِبَةَ له ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ﴾ على دِيني من المسلمين يقولُ مقالتي، ثم قال تعالى آمِراً لعبده ورسولِه محمدٍ ﷺ، أن يدعو إلى طَريقتِهِ ودينه والدخول في شرعِهِ، وما بعثه الله به اليهودَ والنصارى والمشركين العرب فقال تعالى: ﴿وَقُل

﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾، أي هو عليمٌ بمن يستحق الهداية ممّن لا يستحقُّها، وهٰذه الآية دليل على عموم بعثته ﷺ إلى جميع الخلق.

93 ــ الرَّقِيبُ

معناه

الذي يُراقِبُ الأشياءَ ويُلاحِظُها، فلا يَغيبُ عن علمه مثقالُ ذَرَّةٍ في الأرض ولا في السماء، قال اللّهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: 52]، وقد ورد هٰذا الاسم في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، وهو مجمعٌ عليه، وورد في الحديث الشريف الجامع لأسماء الله الحسنى.

أقوال العلماء في تفسيره

يقولُ حُجَّةُ الإسلام، وفيلسوفه الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء اللّه الحُسْنى»: (الرَّقِيبُ هو العليمُ الحَفيظُ، فَمَنْ راعى الشَّيْءَ حتّى لم يَغْفُلْ عنه، ولاحَظَه ملاحَظَةً دائمَةً لازِمَةً لُزوماً لو عرفه المَمْنُوعُ عنه لما أقْدَم عليه سُمِّيَ: رقيباً. وكأنه يَرْجِعُ إلى العلم والحِفظِ، ولكن باعتبار كونه لازماً دائماً، وبالإضافة إلى مَمْنُوعٍ مَحْرُوسٍ عن التَناوُلِ.

وصفُ المُراقَبَةِ لِلعَبْدِ إنما يُحْمَدُ إذا كانت مُراقَبَتُه لِرَبِّه بقَلْبِه؛ ذلك بأنْ يَعْلَمَ أنَّ اللّهَ رَقيبُه وشاهِدُه في كل شَيْءٍ، ويَعْلَمَ أنَّ نَفْسَهُ عَدُوٌّ له، وأنَّ الشَّيْطانَ عَدُوٌّ له وأنَّهما ـ أي نفسُه والشيطان ـ يَنْتَهِزانِ منه الفُرَصَ حتّى يَحْمِلاهُ على الغَفْلَةِ والمُخالَفَةِ، فيأخُذُ منهما حِذْرَهُ بأنْ يُلاحِظَ مَكامِنَهما أو تلبيـهما ومَواضِعَ انبعاثِهِما، حتى يَسُدَّ عليهما المنافِذَ والمَجارِيَ، فهٰذه هي مُراقَبَتُه). انتهى كلام الغزالي.

ويقول الإمام المُحدِّث اللُّغَوِيُّ مَجْدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماء الله تعالى الرقيبُ هو الحافِظُ الذي لا يَغيبُ عنه شيء. **(فعيلٌ)** بمعنى: **(فاعِلٌ)**.

ومنه الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري في «صحيحه» كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب قرابة رسول اللَّهِ ﷺ، الحديث (3713): «**ارْقُبُوا مُحَمَّداً في أَهْلِ بَيْتِهِ**»، أيَ احْفَظُوهُ فيهم.

ومنه الحديث: «**ما مِن نبيٍّ إلاّ أُعطِيَ سَبْعَةَ نُجَباءَ رُقَباءَ**»، أي حَفَظَةً يكونون معه)، انتهى كلام ابن الأثير.

أقوال المفسّرين

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: 116 ـ 118].

هٰذا مما يخاطِبُ اللَّهُ به عَبْدَهُ ورَسُولَه عِيسَى ابن مَرْيَمَ عليه السلام، قائلاً له يومَ القِيامَةِ بِحَضْرَةِ مَن اتَّخذَهُ وأُمَّهُ إلٰهينِ مِن دُونِ اللَّهِ، ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهٰذا تهديدٌ للنَّصارَى وتوبيخ وتَقْرِيعٌ على رُؤُوسِ الأَشْهَادِ، هكذا قال قتادةُ وغيره مِن المفسّرين، واستدلّ على ذلك بقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: 119]، أخرج الإمام البخاري في «صحيحه» بسنده إلى عُبادَةَ بن الصامِت رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال: «**مَن شَهِدَ أن لا إلٰهَ إلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شريكَ له، وأن محمداً عبدُه ورسوله، وأن عيسى عبدُ اللَّهِ ورسولُهُ وكَلِمَتُه ألقاها إلى مَرْيَمَ ورُوحٌ منه، وأن الجَنَّة حَقٌّ والنارُ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّة على ما كان مِن العمل**». وقد أمرهم الله بالإيمان فقال: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [النساء: 171]، أي فَصدِّقوا بأن اللَّهَ واحِدٌ أَحَدٌ لا وَلَدَ له ولا صاحِبَةَ، واعلموا وتيقّنوا بأن عيسى عبدُ اللَّهِ ورسوله، وكذلك محمدٌ ﷺ رسولُ اللَّه، وقد بَشّر عيسى قومه به، وقال تعالى ناهِياً إياهم عن الشرك: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ﴾ أي لا تجعلوا عيسى وأمّه مع اللَّهِ شريكين، تعالى اللَّهُ عن ذلك علوّاً كبيراً، وبين أن قائِل ذلك كافرٌ فقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ

﴿إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: 73]، وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 17]، والنصارى مِن جهلهم ليس لهم ضابط، ولا لكفرهم حدّ، بل أقوالُهم وضلالهم منتشر، فمنهم مَن يعتقد عيسى إلٰهاً، ومنهم من يعتقده شريكاً، ومنهم من يعتقده ولداً، وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة وآراء غير مؤتلفة، وقد ذكر بطرك الاسكندرية سعيد بن بطريق: أن القولَ بأن عيسى هو ابنُ اللّه أُقِرَّ في «مجمع نِيقْيَة» الذي عقده قسطنطين عام 330 م.

وقولُه: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾، هذا توفيقٌ للتأدّب في الجواب الكامل. وقوله: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾، أي إن كان صَدَرَ مِني هٰذا فقد عَلِمتَه يا ربّ، فإنه لا يَخفى عليك شيء، فما قُلْتُه، ولا أَرَدْتُه في نفسي، ولا أَضْمَرْتُه، ولهذا قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾، أي بإبلاغه ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾، أي ما دعوتُهم إلّا إلى الذي أرسلتني به وأمَرْتَني بإبلاغه ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾، أي هٰذا هو الذي قلتُ لهم.

وقولُه: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ﴾، أي كنتُ أشهَدُ على أعمالِهم حين كنتُ بين أَظْهُرِهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾. أخرج الإمام البخاري في «صحيحه» في كتاب التفسير، عند هذه الآية، عن ابن عباس قال: «قام فينا رسول اللّهِ ﷺ بموعظةٍ فقال: **يا أيُها الناسُ إنكم محشورون إلى اللّهِ ﷻ حُفاةً عُراةً غُرْلاً** ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾، **وإنّ أوّلَ الخلائِق يُكْسَى يومَ القيامَةِ إبراهيمُ، ألا وإنّه يُجاءُ بِرجالٍ مِن أُمّتي** ـ أي خالفوا دينه ولم يتّبعوه ـ **فيُؤخذ بهم ذاتَ الشمالِ، فأقولُ: أصحابي! فيُقالُ: إنك لا تدري ما أحدَثوا بَعْدَكَ، فأقولُ كما قال العَبدُ الصالِحُ**: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾، **فيُقالُ: إنّ هؤلاء لم يزالوا مُرْتَدّين على أعقابهم منذ فارَقْتَهم**».

وقوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾، هٰذا الكلام يَتضمّنُ ردَّ المَشيئَةِ إلى اللّهِ فإنّه الفعّال لما يشاءُ،

الذي لا يُسْألُ عما يفعلْ وهم يُسْألون، ويتضمّن التبرِّي من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله، وجعلوا للّهِ نِدّاً وصاحِبَةً وولداً، تعالى اللّهُ عما يقولون عُلُوّاً كبيراً، وهٰذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب، وقد ورد في الحديث: أن النبيَّ ﷺ قامَ بها ليلةً حتى الصباحَ يُردِّدُها.